تعريف بأمهات الكتب المؤلفة في السيرة

مناهجها وصلة السيرة النبوية المباركة بالتاريخ العام وبالأطوار التي مر بها تدوين السيرة النبوية



أ. د. عبد الله جمال الدين(*)

(١) سيرة النبي ﷺ كغيرها خضعت لسنة التدرج في النشأة والتكوين، فلم يكن بين الكُتّاب الذين كانوا يكتبون الوحي للرسول - صلوات الله وسلامه عليه - من كتب حياته الخاصة والعامة، وبقى الحال كذلك فترة الخلفاء الأربعة الراشدين ١١ - ٤٠ هـ، ومما يقال في سبب ذلك أن صحابته - رضوان الله عليهم - الذين عاصروه - صلوات الله وسلامه عليه - لم يكونوا في حاجة إلى تسجيل تلك الأحداث، فهم قد عاشوها وحفظوا كل كلمة قالها وأعماله ﷺ معروفة لهم بكل تفاصيلها، ساعدهم على ذلك ما تميزوا به من قوة الحافظة وسرعة البديهة، فوق انشغالهم بالغزوات والفتوحات .

(٢) غير أنه لم يكد جيل الصحابة ينتهي، حتى برزت الحاجة إلى تسجيل أحداث سيرة رسول الله ﷺ ، وخاصة وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم؛ ولذلك كان من الطبيعي أن يهتم جيل التابعين بسيرة النبي ﷺ

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية المتفرغ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة، وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة.

وهم الذين رأوا صحابة النبي ﷺ ، وتتلمذوا عليهم - هؤلاء التابعون بهرتهم مواقف الرسول ﷺ ، وأعماله وأخلاقه التي سمعوها من صحابته رضوان الله عليهم؛ لذلك تاقت نفوسهم إلى معرفة تفاصيل كل ما يتعلق به صلوات الله وسلامه عليه، وأخذوا يسألونهم ويستفسرون منهم عن مشاهده، ومواقفه، وسيرته، وأخلاقه، وعلاقته بأهله وبأصحابه، وكان هؤلاء - رضوان الله عليهم - يسمعون ويجيبون، والسؤال والجواب من أهم روافد العلم خاصة في مرحلة النشأة والتكوين.

(٣) وكان من الطبيعي أن تكون المدينة المنورة هي أصلح بيئة تجيب على هذه الأسئلة، فقد عاش بها معظم الصحابة الذين عايشوا الأحداث الكبرى في عهد النبي صلوات الله عليه، ونقلوا ذلك للتابعين الذين لم يكتفوا بالتلقي والحفظ، بل كانوا يدونون ما سمعوا من أفواه من شاهدوا الوقائع والأحداث، وكانت تلك لحظة البدء: بدء التأليف في السيرة النبوية المباركة، وشيئًا فشيئًا لم يعد الأمر يقتصر على المدينة المنورة وحدها، بل سارع الناس إلى الأمصار الإسلامية المختلفة حيث استقر بعض الصحابة، يسأل التابعون ويجيب الصحابي، حدث ذلك في البصرة، والكوفة، ودمشق، والفسطاط، وغيرها.

(٤) وكبار التابعين الذين بدأوا تدوين السيرة النبوية، ومثلوا المصدر الرئيس لها، كانوا من أبناء كبار الصحابة، فأخذ هؤلاء العلم عن آبائهم الكرام الذين شاركوا بأنفسهم وشاهدوا، بل كان من بين أوائل علماء السيرة من كان على صلة وثيقة ببيت النبوة، مثل عروة بن الزبير بن العوام، فأبوه الزبير،وأمه أسماء بنت الصديق، وخالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، لقد نقل عروة عن هؤلاء وخاصة أم المؤمنين عائشة أخبار كثيرة عن حياة النبي، وسيرته ﷺ .

رجال الطبقة الأولى من كتاب المغازي والسير

١ - أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنه :

ولد في المدينة المنورة، نحو سنة ٢٠هـ، وتوفي بها في زمن الخليفة الأموي يزيد

ابن معاوية، وأبوه الخليفة الثالث «عثمان» لا يحتاج إلى تعريف، وفي جو المدينة المنورة نشأ «أبان» وتعلم حتى أصبح واحداً من فقهاء المدينة المشهورين، ومن رواة الحديث النبوي الشريف، وممن تعلم عليهم كبار المحدثين والفقهاء الذين من أبرزهم محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أستاذ عمدة المؤلفين في السيرة النبوية محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي.

وقد حاز «أبانُ» على ثقة العلماء خاصة في مجال المغازي والسير، قال عنه «ابن سعد» في الطبقات - وهو يترجم للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة ٥ / ١٧٩ - كان ثقة قليل الحديث، إلا مغازي رسول الله ﷺ أخذها عن أبان بن عثمان، وقد وصلتنا رواياته وآرؤه في المصادر برواية تلاميذه.

٢ - عروة بن الزبير :

هو نجل الزبير بن العوام بن خويلد حواري رسول الله ﷺ ، وابن عمته صفية، وخديحة أم المؤمنين عمة الزبير، أما أم عروة فهي أسماء بنت الصديق ذات النطاقين، وخالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، و«عروة» من مواليد المدينة المنورة نحو ٢٦ هـ، وتوفي بها سنة ٩٤ هـ، وكل هذا يعني أن البيت الذي نشأ فيه كان قريباً من بيت النبوة، وعرف عنه كثرة التردد على خالته ومعلمته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكان يداوم التعلم منها والتحدث إليها .

وعندما تولى معاوية رضي الله عنه الخلافة استفتح عهده بالإحسان إلى أهل المدينة عامة وأبناء الصحابة بصفة خاصة، وأغدق عليهم بما ساعدهم على التفرغ للعلم؛ فزخر مسجد رسول الله ﷺ بالعلماء والمتعلمين في مختلف التخصصات، وكان عروة ابن الزبير واحداً من أبرز فرسان هذه الحلقات.

تروي كتب الطبقات أنه كان يجتمع كل ليلة في المسجد النبوي بمجموعة من كبار التابعين، منهم أخوه مصعب بن الزبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبد الملك بن مروان . . . وآخرون، ويُعْتبر عروة بن الزبير أحد فقهاء المدينة السبعة الكبار، ومن أكابر علماء السيرة والمغازي، وكان الناس يتوجهون إليه

بأسئلتهم خاصة ما يتعلق بالسيرة النبوية، لقربه من بيت النبوة؛ ولمعرفته أكثر من غيره بما كان يدور في هذا البيت عن طريق خالته السيدة عائشة رضي الله عنها .

ومعروف أن الخليفة الأموي ـ عبد الملك بن مروان ـ حمامة مسجد رسول الله ﷺ ـ كان يكثر الرجوع إلى عروة في كل ما يتعلق بأحداث السيرة النبوية .

ويبدو أن عروة ألف كتبًا كثيرة في السيرة، يروي ابن سعد في الطبقات(١) ٥ / ١٣٣ عن هشام بن عروة أن أباه أحرق يوم « الحرة » ـ الموقعة التي كات بين ثوار المدينة المنورة وجيش الخليفة الأموي يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هـ ـ عدة كتب حزن على فقدها فيما بعد، وهذا يعني انتشار الكتابة والتأليف في هذا الوقت المبكر.

وقد حفظت لنا المصادر الكثير من المادة العلمية التي كان مصدرها عروة، وذلك موجود في سيرة ابن اسحاق، ومغازي الواقدي، وطبقات ابن سعد، وفي تاريخ الطبري كثير من هذه الروايات.

٣ ـ شرحبيل بن سعد :

نشأ في المدينة شأن سابقيه، وهو مولى بني حطمة تلقى عن جمع من الصحابة منهم يزيد بن ثابت، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وغيرهم. يروى عن سفيان بن عيينة أنه لم يكن أحد أعلم بالمغازي والبدريين منه (طبقات ابن سعد ٥ / ١٣٠)، ويذكر موسى بن عقبة أن شرحبيلاً دون قوائم بأسماء المهاجرين إلى المدينة، وأسماء الذين اشتركوا في غزوتي بدر وأحد(٢). وقد توفي شرحبيل سنة ١٢٣هـ.

٤ ـ وهب بن منبه :

من مواليد قرية قريبة من صنعاء في اليمن سنة ٣٤ هـ، وهو في هذا مختلف عن الثلاثة الأول، فهم مدنيون وهو يمني؛ وهذا يبرهن على أن الاهتمام بالسيرة النبوية تجاوز أهل المدينة، وأصبح العلماء يهتمون بها في كل الأقطار. وهناك من يروي أن وهبًا بن منبه يهودي الأصل، ومنهم من يرى أنه فارسي الأصل، سكن

(١) ٥/١٣٣ .

(٢) المغازي الأولى ومؤلفوها / يوسف هوروفيتش ترجمة حسن نصار .

اليمن في فترة السيطرة الفارسية عليها، فهو ممن يسمون بالأبناء، وقد نشأ في أسرة مسلمة اشتهر كثير من أفرادها بالعلم، وكان أهل ثقة عند العلماء[١]. وقد روى عن طائفة من الصحابة منهم أبو هريرة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وأبو سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله وغيرهم.

كان عنده من علم أهل الكتاب الكثير، وكان ثقة واسع العلم[٢] مع عنايته الخاصة بأحاديث أهل الكتاب الذين كثر عددهم في جنوب الجزيرة العربية، ويرجح أنه كتب كثيراً في المغازي والسير مما جعل العلماء يعدونه من رجال الطبقة الأولى.

وفي مجموعة البرديات الموجودة في مدينة «هيدلبرج» في ألمانيا يوجد مجلد يقال إنه يضم قطعة من كتاب المغازي لـ «وهب بن منبه» مكتوب سنة ٢٢٨ هـ، وفيها معلومات عن بيعة العقبة الكبرى، وحديث قريش في دار الندوة - حيث قرروا قتل النبي ﷺ والاستعداد للهجرة نفسها، ووصوله - صلوات الله وسلامه عليه - إلى المدينة[٣]، وقد توفي وهب بن منبه سنة ١١٠ هـ بعد أن أثرى حركة التأليف في المغازي والسير، وغير ذلك.

هؤلاء هم رجال الطبقة الأولى. ونأخذ الآن في التعريف برجال الطبقة الثانية.

رجال الطبقة الثانية من كتاب المغازي والسير

١ - محمد بن مسلم بن شهاب الزهري :

[ترجم له ابن خلكان[٤]].

وينتسب الزهري إلى بني زهرة - أخوال النبي ﷺ - وإليه يرجع الفضل في تأسيس مدرسة المدينة التاريخية، فوق أنه من كبار الفقهاء والمحدِّثين، وقد رأى

(١) طبقات ابن سعد ٥/٥٤٣، وتذكرة الحفاظ للذهبي ١/١٠٠.
(٢) تذكرة الحفاظ ١/١٠٠، ١٠١.
(٣) المغازي الأولى ومؤلفوها ٣٤/٣٥.
(٤) وفيات الأعيان ٤/١٣٧، وتهذيب التهذيب ٩/٤٨٨.

عشرة من أصحاب النبي ﷺ ـ وتتلمذ على كبار التابعين من أمثال سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وعبيد الله بن عتبة، وكان يعتبر هؤلاء بحور قريش في العلم .

وقد تتلمذ علي الزهري وروى عنه أئمة أعلام في مقدمتهم عالم المدينة الأشهر مالك بن أنس الأصبحي، وسفيان ابن عيينة، وسفيان الثوري، وهو الذي حفظ علم فقهاء المدينة السبعة المشهورين كما يقول مكحول الدمشقي، وقد كتب الخليفة التقي الراشد عمر بن عبد العزيز إلى سائر الأقاليم: عليكم بابن شهاب، فإنكم لا تجدون أعلم بالسنة الماضية منه(١) .

ويمتاز الزهري عن معاصريه بكثرة الكتابة والتدوين، واقتناء الكتب، وكانت امرأته تقول عن كتبه هذه: «إنها أشدُّ عليَّ من ثلاث ضرائر» فقد كان كثير الاشتغال بها عنها؛ وهذه المكانة هي التي مكنت من نشر علمه ورفعه إلى ما وصل إليه من منزلة رفيعة، وللأسف فقد ضاع معظم ما دونه بنفسه ولم يبق لنا إلا ما رواه تلاميذه وأشهرهم محمد بن اسحاق الذي حفظ علم أستاذه وكان يعتبره موضع ثقته حتى أنه كان يتشبث من أية معلومة تنقل إليه من أي طريق آخر يعرضها على أستاذه الزهري(٢) .

وكان للزهري عدد آخر من التلاميذ منهم موسى بن عقبة المتوفي سنة ١٤١ هـ، ومَعْمَرُ بن راشد المتوفي سنة ١٥٤هـ وهما من رجال الطبقة الثالثة من كتاب المغازي والسير.

٢ ـ عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري :

مدني أي من أهل المدينة، وجده الأعلى عمرو بن حزم صحابيٌ ولاه رسول الله ﷺ على نجران، أما جدُّه المباشر محمد بن عمرو، فقد رأى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وتوفي عام ٦٣ هـ، أما أبوه فقد ولي قضاء المدينة المنورة من ٧٨

---

(١) وفيات الأعيان ٤ /١٣٧، وتهذيب التهذيب ٩ /٤٨٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤ /٢٩٩ .

إلى ٩٣ هـ أثناء ولاية عمر بن عبد العزيز عليها، ثم أصبح هو واليًا عليها من ٩٦ : ١٠١ هـ، ولأنه كان من الثقات الأثبات عهد إليه عمر بن عبد العزيز بجمع أحاديث رسول الله ﷺ .

قال عنه الإمام مالك بن أنس: «ما رأيت مثل ابن حزم، أعظم مروءة، وأتم حالاً، ولا رأيت من أوتى مثل ما أوتى، ولاية المدينة والقضاء والموسم»[١].

كان حجة في رواية الأحاديث خاصة ما يتعلق بالمغازي، وقد روى عنه أكابر علماء السيرة مثل ابن اسحاق، ومحمد بن عمر الواقدي، وكاتب الواقدي محمد ابن سعد، والطبري، خاصة ما يتعلق بوفود القبائل إلى رسول الله ﷺ في عام الوفود، وأخبار حروب الردة، وكانت زوجته تروي عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، وهذه تروي بدورها عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكان صاحبنا يروي عن زوجته ويسمح لها أن تحدث الغير بما تعرفه عن السيرة النبوية وأخبارها، كذلك روي محمد بن أسحاق عن عبد الله عن أبي بكر..؛ وكل هذا يسر لابن حزم الأنصاري جمع الأحاديث المتصلة بالمغازي[٢] ، وأن يصبح مصدراً من مصادرها، ومن أعلام الطبقة الثانية من كتاب المغازي والسير .

٣ ـ عاصم بن عمر بن قتادة :

كان جده قتادة بن النعام الظَّفَرِيّ الأنصاري من صحابة رسول الله ﷺ وشهد بدراً وأحداً، ولما كان قتادة أحد الصحابة المجاهدين الذين شهدوا المشاهد مع رسول الله ﷺ ، فقد روي لابنه عمر ما شاهده بنفسه من مغازي وسير وأخبار رسول الله ﷺ ، وهذا بدوره رواها لابنه عاصم الذي أصبح حجة في ذلك. قال عنه محمد بن سعد: «وكان راوية للعلم، عالمًا بالمغازي والسير، ولتبحره فيها كلفه الخليفة عمر بن عبد العزيز ٩٩ ـ ١٠١ هـ أن يجلس في المسجد الأموي في دمشق ليحدث الناس عن المغازي ومناقب الصحابة ففعل»[٣].

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٣١٤ .

(٢) ضحى الإسلام لاحمد أمين ٢/٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٣) لمحمد شهبة ٥٢ .

ولهذا كله كان من المصادر الأساسية التي اعتمد عليها أصحاب السير والمغازي مثل محمد بن اسحاق، ومحمد بن عمر الواقدي، وقد توفي نحو عام ١٢٠هـ .

هذه نبذة عن كُتَّاب الطبقة الثانية من رجال المغازي والسير، وقد آن الأوان لنقدم شيئًا عن رجال الطبقة الثالثة .

رجال الطبقة الثالثة من كُتَّاب المغازي والسير

فرسان هذه الطبقة كثيرون، فكما قلنا كلما امتد الزمن اتسعت دائرة العلماء، وحسبنا كلمة قصيرة عن بعض أعلام هذه الطبقة .

١ - موسى بن عقبة :

هو مولى لآل الزبير، وبيت الزبيريين كان حافلاً بعدد هائل من العلماء خاصة في ميدان المغازي والسيرة، وحسبنا أن نذكر عروة بن الزبير، ومحمد بن جعفر بن عبد الله بن الزبير، ويحيى بن عباد بن الزبير، وصلة الزبيرين وثيقة ببيت النبي ﷺ عن طريق خالتهم أم المؤمنين عائشة ﵂ فهم إذن مصدر موثوق به عن أخبار سير ومغازي رسول الله ﷺ وقد استفاد مواليهم - ومنهم موسى بن عقبة - من ذلك كله .

ولموسى أخوان أسن منه، وهما إبراهيم بن عقبة، ومحمد بن عقبة ، والثلاثة من أبرز تلاميذ مدرسة المدينة في الفقه والحديث، ويتميز موسى باشتهاره في مجال المغازي، يقول عنه الإمام مالك بن أنس : « عليكم بمغازي ابن عقبة، وهي أصح المغازي »[١] .

وقد وصلت إلينا روايات هذا العالم الكبير عن طريق مقتبسات في طبقات ابن سعد، وتاريخ الطبري، ويروي موسى بن عقبة أن كريبًا بن أبي مسلم - أحد موالى ابن عباس - وضع عنده حمل بعير من كتابات هذا الصحابي الجليل، مما يدل على أن التدوين قد بدأ مبكرًا، وإن ضاعت معظم مدونات الفترة الأولى، وقد مات موسى بن عقبة سنة ١٤١ هـ .

---

(١) ضحى الإسلام ٢ /٣٢٧ ومحمد شهبة ٢٦ .

٢ ـ معمر بن راشد :

من رجال الطبقة الثالثة البارزين من كتاب المغازي والسير، وهو مولى من الموالي من أهل الكوفة كما يقول ابن النديم في الفهرست (ص ١٣٨)، ثم رحل إلى البصرة ثم اليمن، وأخذ ينتقل إلى البلاد يأخذ العلم عن الشيوخ، وكان من أبرزهم محمدبن مسلم بن شهاب الزهري، و« معمر » هذا من أنبل وأحب تلاميذه بعد ابن إسحاق؛ ولذلك فإن أكثر ما يرويه عن السير والمغازي ينسبه إلى شيخه الزهري، وكان للرجل صفات حميدة وخلق نبيل، يقول عنه ابن سعد : « كان معمر رجل له حلم ومروءة ونبل في نفسه » (ضحى الإسلام ٢ / ٣٢٨) .

كذلك كان واسع العلم بالحديث والسير والمغازي، وينسب إليه صاحب الفهرست كتاب في المغازي، ويقول عنه : « معمر بن راشد ـ من أهل الكوفة ـ يروى عنه عبد الرازق من أصحاب السير والأحداث، وله من الكتب كتاب (المغازي) » (الفهرست لابن النديم ص ١٣٨) .

ومع ذلك لم يصل إلينا هذا الكتاب، والذي وصلنا مقتطفات عند الواقدي، وابن سعد، والبلازري، والطبري، وكانت وفاته نحو سنة ١٥٠ هـ[١] .

٣ ـ ابن إسحاق :

أبو عبد الله أبو بكر محمد بن إسحاق بن خيار المطلبي الولاء المدنيُّ أي من أهل المدينة. وهناك خلاف حول تاريخ ولادته، أما وفاته فكانت نحو سنة ١٥١ هـ، وقد زار الإسكندرية، وسمع من يزيد أبي حبيب، – أول مدرس للحديث في مصر ـ والمتوفي سنة ١٢٨ هـ .

وقد رجع ابن إسحاق إلى المدينة المنورة ثم انتقل منها إلى بغداد حيث سكنها ومات فيها.

وجدُّ ابن إسحاق « يسار » مولى لقيس بن مخرمة بن عبد المطلب القرشي، وقد سباه خالد بن الوليد في موقعة « عين التمر » سنة ١٢ هـ أي أنه من أوائل من سُبِيَ

(١) ضحى الإسلام ٢ / ٣٢٨ .

بالعراق ثم جُلب إلى المدينة المنورة حيث ولد ثم شب صاحبُنا محمد .

وقد انصرف ابن إسحاق منذ حداثة سنه إلى جمع الأخبار والروايات المتعلقة بسيرة النبي ﷺ ورأي أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، وسمع القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وأبان بن عثمان بن عفان، ومحمد بن علي بن الحسن ان علي بن أبي طالب، وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، ونافعًا مولى عبد الله بن عمر، والزهري وغير هؤلاء .

وحدَّثَ عنه أئمة العلماء منهم يحيي بن سعيد الأنصاري، وسفيان الثوري وابن جريح، وشعبة، والحمادان، وإبراهيم بن سعيد، وشريك بن عبد الله النخعي، وسفيان بن عيينة ..

وقد بدأت الكتابة التاريخية بابن إسحاق وهو ثالث ثلاثة من تلاميذ « الزهري » المصنفين في المغازي، وقد اصطدم بأئمة الحديث أصحاب الرأي السائد في المدينة- خاصة الإمام مالك بن أنس - الذي اتهم ابن إسحاق بالتشيع وانتحال الكثير من القصص والأشعار؛ ولذلك ترك بلده واتجه إلى مصر، ثم أغراه الخليفة أبو جعفر المنصور بالقدوم إلى بغداد حيث توفى بها .

وقد تقصى محمد بن إسحاق الأخبار في المدينة، وأخذها عن أهلها، كما يُذْكَرُ له أكثر من مائة رواية من أهل المدينة وحدها، كذلك روى عن أهل الكتاب، وعن الموالي والأعاجم ... وروى عن « وهب بن منبه » ما يتعلق باليمن فمصادر معلوماته متنوعة جداً حتى بلغ عدد شيوخه ١١٤ شيخًا، لكن هذا التقصي خلق له بعض الصعاب، لهذا قصد العراق وأهدى الخليفة العباسي المنصور المغازي التي كتبها في المدينة، وتبين من الرواة الذين ذكرهم أنه ألف مادته على أساس الأحاديث التي سمعها في المدينة المنورة خاصة، وفي مصر أيضًا، وقد سمع منه أهل المدينة والرأي، لكن لم يرو عنه من أهل المدينة إلا القليل؛ لأن عداء مالك بن أنس له، واتهامه إياه بالدجل جعلهم يتحرجون من أمر توثيقه، وقد جمع المستشرق الألماني « فوك » قائمة ضمت ١٥ تلميذاً لابن إسحاق معظمهم عراقيون وجزيريون .

لكن لماذا عادى مالك بن أنس ابن إسحاق؟ يقال إن السبب في ذلك آراؤه في القدر وتمسكه بها، ويقال إن مالكًا طعن فيه لأنه بلغه أنه قال: هاتوا حديث مالك فأنا طبيب بعلله، فقال الإمام مالك: وما ابن إسحاق؟ إنه دجال من الدجاجلة أخرجناه من المدينة، يشير ـ والله أعلم ـ إلى أن الدجال لا يدخل المدينة، كذلك أخذ عليه مالك أنه يتتبع الغزوات من أولاد اليهود الذين أسلموا وحفظوا قصة «خيبر» وغيرها عن أسلافهم.

ومع ذلك فمحمد بن إسحاق موضع ثقة عند أكثر العلماء، ويقول ابن حبان: «لم يكن أحد في المدينة يقارب ابن إسحاق على علمه، أو يوازيه في جمعه، وهو من أحسن الناس سياقًا للأخبار».

وقد ذكر ابن سيد الناس في كتابه (عيون الأثر) أقوال كثير من العلماء الذين يشهدون لابن إسحاق، كما جمع أقوال المعادين وفندها وردَّ عليها.

أما المغازي والسير فلا تجهل إمامة «ابن إسحاق» فيها، يقول ابن شهاب الزهري: «من أراد المغازي فعليه بابن إسحاق»، وذكره البخاري في تاريخه، ورُوِيَ عن الإمام الشافعي ﷺ قوله: «من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق» ويقول سفيان بن عيينة: «ما رأيت أحداً يتهم ابن إسحاق في حديثه» وقال شعبة بن الحجاج: «محمد بن إسحاق أمير المؤمنين» يعني في الحديث، ويقال إن الزهري خرج إلى قرية له فاتبعه طلاب الحديث، فقال لهم: «قد خلفت فيكم الغلام الأحول، - يعني ابن اسحاق - وكان أصحاب الزهري يلجأون إلى ابن إسحاق فيما يشكُّون فيه من أقوال أستاذهم؛ ثقة منهم بحفظه، وحكى عن يحيى ابن معين، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن سعيد القطان أنهم وثقوا محمداً بن إسحاق، واحتجوا بحديثه، وقد وثقه البخاري وإن لم يخرج له، ولم يخرج له مسلم في صحيحه إلا حديثًا في الرجم، كل ذلك من أجل طعن مالك بن أنس فيه.

هكذا انقسم الناس حول ابن إسحاق، ما بين مجرح ومعدل، ويأتي على رأس

المجرحين الإمام مالك، وهشام بن عروة بن الزبير، لكن ما حققه في المغازي موضع إجماع بين العلماء، وسئل الزهري عن مغازي ابن إسحاق فقال: أعلم الناس بها، ويقول المؤرخ عاصم بن قتادة المدني: «لا يزال الناس في علم ما بقي ابن إسحاق» وسبق قول الشافعي في هذا الصدد، ويقول الطبري عن ابن إسحاق: «من أهل العلم بالمغازي: مغازي رسول الله ﷺ وأيام العرب وأخبارهم وأنسابهم وراوية لأشعارهم، كثير الحديث غزير العلم، طلابة له، مقدم في العلم بكل ذلك، ثقة.

جاء في عيون الأثر لابن سيد الناس[١] لم يكن أحد بالحجاز أعلم بأنساب الناس وأيامهم من ابن إسحاق، وكان يزعم أن مالكًا بن أنس من موالي ذي أصبح، وكان مالك يزعم أنه من أنفسها، فوقع بينهما شيء بسبب ذلك، ولما صنف مالك موطأه قال ابن إسحاق إئتوني به فأنا بيطاره، ولما نقل ذلك لمالك قال: «هذا دجال من الدجاجلة يروي عن اليهود»، فكان بينهما ما يكون بين الناس، ولما عزم ابن إسحاق على الخروج إلى العراق تصالحا حينئذ، وأهداه عند الوداع خمسين دينارا ونصف؛ ثمرته عن تلك السنة.

وإن كان البعض قد توقف فيما يرويه ابن إسحاق متعلقًا ببدء الخلق، كما يأخذون عليه تتبعه غزوات رسول الله ﷺ من أولاد اليهود الذين أسلموا، فإنه لم يرو ذلك عنهم ليحتج به، وإنما فقط لمجرد العلم، وإثبات ما سمع من روايات.

والحافظ ابن كثير يعتمد كثيراً على ابن إسحاق في كتابه «البداية والنهاية»، و«السيرة النبوية»، خاصة ما يتعلق بأخبار ما قبل الإسلام والمغازي والسير، وقد وافقه ابن كثير في معالجته للسيرة وترتيب أحداثها، وكثيراً ما مدحه وأثنى عليه، ولقبه بالإمام، واعتبره إمامًا في المغازي غير مدافع في ذلك.

وقد أنصف الحافظ «أبو أحمد بن عدي» وهو مَنْ هو في نقد الرجال وكتابه «الكامل» أساس في ذلك الباب يقول: «قد فتشت أحاديثه الكثيرة (أي ابن إسحاق) فلم أجد ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف، وربما أخطأ، أو يهم في الشيء بعد الشيء كما يهم غيره .....

(١) ط ١ ص ١٦، ١٧.

كتب ابن إسحاق:

بالإضافة إلي كتاب له عن الخلفاء الراشدين والأمويين، نقل الطبري وغيره بعض مقتطفات منه، فإن لابن إسحاق:

- كتاب المبدأ، وهو عبارة عن القسم الأول من كتابه «المغازي» أفرده بعنوان خاص؛ لأنه يتناول مبدأ الخلق حتى ظهور الإسلام، والتأثر فيه واضح بـ«وهب بن منبه»، ويدور حول قصص اليمن، وبعض الإسرائيليات .

- «المغازي» أي السيرة النبوية، وهي مجد الرجل الحقيقي، وتجمع بين الآي القرآنية والأحاديث النبوية، يضاف عليها القصص الشعبي والشعر من صحيح وموضوع، والإسرائيليات، وهي بهذا التقصي تحفظ لنا الكثير من المعومات كما أنها أقدم سيرة إسرائيلية حفظت لنا كاملة.

وهنا يعني أن ابن إسحاق دون السيرة في كتابين: الأول هو المبدأ وفيه قصص الإسلام وسيرة النبي ﷺ حتى الهجرة، والثاني «المغازي»، ويبدو أن «الماوردي» في الأحكام السلطانية كان يروي هذه المغازي اعتماداً على أصل «ابن إسحاق» ، وقصصه موجودة في «سيرة ابن هشام» لكن بصورة مقتضبة، وكثير من «المغازي» - في فقرات مسهبة - أوردها الطبري، وهي موجودة بصورة قائمة بذاتها عند ابن هشام، وقد أوردها نقلاً عن تلميذ مباشر لابن إسحاق وهو زياد بن عبد الله البكائي الكوفي، فقد جمع ابن هشام كتابي ابن إسحاق اختصرهما كثيراً، واستخلص منهما سيرة النبي ﷺ وأخرج هذا في السيرة الحالية لابن هشام كتبها لواحد من الوزراء المغاربة في القرن الرابع الهجري، وقد شرحها السهيلي المتوفى عام ٥٠٨ هـ ، كما شرحها شرحا سطحيًا أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود المراكشي المتوفى عام ٦٠٤ هـ بمدينة «فاس» في المغرب.

ولم يطبع كتاب «المغازي» كاملاً في صورته الأصلية حتى الآن، وقد طبع قسم منه في المغرب بعناية الدكتور محمد حميد الدين الحيدر أبادي، وطبع في المشرق بتحقيق سهيل ذكار.

وقد نشرت دار أخبار اليوم في القاهرة مجلدين بعنوان « السيرة النبوية لابن إسحاق » بتحقيق طه عبد الرءوف سعد، وبدوي طه بدوي، وذكرا في تعليق لهما أن مخطوطات سيرة ابن إسحاق قد بدأت كلها بعنوان « حفر زمزم » فاضطر الناشر إلى سرد النسب الزكي وما تلا عن ذلك عن ابن هشام في نحو ٩٠ صفحة، ثم بدأت سيرة ابن إسحاق برواية يونس بن بكير ... ثم بدأ المجلد الثاني بهذه العبارة « من أول هنا إلى نهاية الكتاب مأخوذ من السيرة النبوية لابن هشام مما رواه عن ابن إسحاق، وبذلك يكون النشر قد تم اعتماداً على روايتي يونس وابن هشام ».

وقد كتب المستشرق الألماني « يوحنا فوك » رسالة عن ابن إسحاق باللغة الألمانية طبعت في « فرانكفورت » ١٩٢٥، وفيها يقرر أن ابن هشام أشار في مقدمة كتابه إلى ما أدخله من تغييرات في كتاب ابن إسحاق، يقول (أي ابن هشام) :

إنه ترك تاريخ أهل الكتاب من آدم إلى إبراهيم، ولم يذكر من سلالة إسماعيل غير أجداد النبي المباشرين، كذلك ترك بعض الحكايات التي رواها ابن إسحاق وليس فيها ذكر النبي، أو لا يشير إليها القرآن، ولا تحتوي علي مناسبة أو شرح أو تأكيد أي أمر آخر مروي في كتاب ابن إسحاق، كما حذف القصائد التي لا يعرفها علماء الشعر، والحقائق التي يؤذي ذكرها بعض الناس أو يحتمل الإساءة إليهم، ثم الأخبار المنسوبة حقًا لابن إسحاق، لكن البكائي كان يجهلها، كما أجرى ابن هشام تصحيحات حقة وإضافات كثيرة في الأنساب واللغة.

ويرى المستشرق الألماني « فوك » أننا إذا ربطنا ما جاء في سيرة ابن هشام بالقطع الكثيرة المذكورة عند الطبري وعند غيره من المؤرخين مثل الأزرقي وابن سعد، فإنه يمكننا أن نصل إلى الصورة الأصلية لابن إسحاق، وقد توصل إلى أنه يمكن تصورها كما يلي :

أ ـ المبتدأ أي التاريخ الجاهلي .

ب ـ المبعث ويشتمل حياة النبي ﷺ في مكة والهجرة والعام الأول فيها .

جـ ـ المغازي وهو تاريخ النبي ﷺ في المدينة وحتى وفاته صلوات الله وسلامه عليه .

منهج ابن إسحاق :

يستخدم ابن إسحاق منهجًا محدداً لعرض الغزوات، فيقدم ملخصًا للغزوة، يتبعه بخبر جماعي مؤلف من أوثق أسانيده كالزهري، ثم يكمل بذكر الأخبار الفردية التي يرويها عن المصادر الأخرى، ثم يدون قائمة بأسماء من حاربوا في الغزوات، وقائمة بالقتلى والأسرى، وأخرى بالمهاجرين الذين رجعوا من الحبشة.

وهناك ـ كما يذكر الطبري ـ ١٥ تلميذاً رووا عن ابن إسحاق منهم إبراهيم ابن سعد المدني . وأشهرهم البكائي . ومعظم فقرات الطبري ترجع إلى سلمة بن الفضل المتوفي ١٩١ هـ، وروى الحاكم النيسابوري معظم الفصل الخاص بالمغازي عنده عن ابن إسحاق اعتماداً على « يونس بن بكير» المتوفي ١٩٩ هـ ، وفعل الشيء نفسه ابن الأثير في «أسد الغابة»، وابن حجر في «الإصابة»، أما اليعقوبي المتوفي ٣٠٠ هـ فقد اعتمد على ابن هشام لشهرته.

والزهري هو أعظم أساتذة ابن إسحاق، كما روى عن الزبيريين: ومن هؤلاء يزيد بن رومان مولى عروة بن الزبير، كما روى عن غيره من الموالي .... بالإضافة إلى عاصم، وعبد الله بن أبي بكر، كما رجع إلى غير المسلمين في الحوادث اليهودية والمسيحية والفارسية، إنه يذكر من رواته بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول، أو أهل التوراة، أو من يسوق الأحاديث عن العجم، كذلك نقل بعض فقرات من العهدين القديم والجديد مترجمة ترجمة حرفية، كذلك ذكر ابن إسحاق وثائق بغير إسناد معظمها عن أستاذه محمد بن أبي بكر، ومجموعة أخرى عن أستاذه المصري «يزيد بن أبي حبيب»، كما يذكر قصائد من الشعر بعضها صحيح وبعضها منحول.

أما ترتيب الرواية فقد بذل ابن إسحاق جهداً خاصًا في ربط الروايات الفردية الواحدة بالأخرى، وفي كثير من الأحيان يكون خبراً عامًا موحداً مستقي من عدة أخبار عن رواة مختلفين يصدره بأسمائهم كما فعل أستاذه الزهري .

إن كتاب ابن إسحاق يمثل أقدم الكتب النثرية التي وصلت إلينا كاملة، وفيه يجمع بين أسلوب المحدثين والإخباريين.

يعلق «هاملتون جب» على مغازي ابن إسحاق فيقول:

«إنها كانت ثمرة تفكير أبعد أفقًا، وأوسع نطاقًا من تفكير سابقيه ولاحقيه ومعاصريه؛ لأنه نزع فيها إلى تاريخ النبي ﷺ فحسب، بل إلى تدوين تاريخ النبوة ذاتها، فوحدة الفكر التاريخي ظاهرة فيها» .

ورواية البكائي اعتمد عليها ابن هشام مع تنقيحها وتقريبها من وجهة نظر المحدثين، كما اعتمدها الطبري، واليعقوبي، ورواية يونس بن بكير الشيباني ت ١٩٩ هـ اعتمدها الحاكم النيسابوري في «المستدرك»، وابن الأثير في «أسد الغابة»، وابن حجر العسقلاني في «الإصابة» .

إن القيمة العالية لابن إسحاق وسيرته هي التي جعلتنا نخصه بهذا الحديث المفصل شيئًا من التفصيل .

٤ ـ الواقدي ١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ:

الحافظ أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي المدني، سمي الواقدي لاسم عرف به أبوه أو جده، وهو أسلمي لانتمائه بالولاء لعبد الله بن بريدة بن الحصين من بني سهم المدنيين، فهو مولى لبني سهم: بطن من بطون بني أسلم.

وهو من أقدم المؤرخين، ومن المشهورين بالمغازي والسير، تلقى العلم سماعًا عن مالك بن أنس في مجال الفقه والحديث، كما تلقى عن سفيان الثوري عالم البصرة، وروى عن ثور بن يزيد، وعن أبي جريج وطبقتهما، كما سمع من أبي ذئب والأوزاعي ـ عالم الشام ـ، ومعمر بن راشد عالم اليمن، ولقي صغار التابعين وسمع منهم في الشام، والحجاز، وغير ذلك، وحدَّث عن أبيه، وكان ماهرًا،

جماعة للعلم، رحالة فيه.

وفي سنة ١٨٠هـ غادر إلى العراق، وإلى الرقة في بلاد الشام، وتلقاه البرامكة، ويحيى بن خالد البرمكي خاصة، ثم عاد إلى العراق فقربه الخليفة المأمون إليه، وتولى قضاء الجانب الشرقي من العاصمة زمن هارون الرشيد وابنه المأمون، وكان جماعة للكتب يشتريها ويستنسخها، وعرف بالأريحية، والسخاء، وشدة الكرم.

وهو واحد من ثلاثة عاصروا ابن إسحاق وكتبوا في المغازي وهم معمر بن راشد ت ١٥٤ هـ، وأبو معشر ت ١٧٠ هـ، ثم موسى بن عقبة ١٤١ هـ، ورغم أنه من مدرسة المدينة إلا أنه قضى الأعوام الثلاثين الأخيرة من حياته في بغداد كما أشرنا.

كتبه :

للواقدي كتب كثيرة في فنون مختلفة، ذكر له صاحب الفهرست ٢٨ كتاباً لم يعرض فيها للفترة الجاهلية، لأنه لم يكن يعلم عنها شيئًا فيما يبدو(١).

وقد جمع من الأحاديث ٢٠ ألف حديث، ويقول تلميذه ابن سعد (٢) إنه كان عالـمًا بالمغازي، والسنة، والفتوح، واختلاف الناس في الحديث والأحكام واجتماعهم على ما اجتمعوا إليه، وقد فسر ذلك في كتب استخرجها ووضعها وحدث بها، وكان قوي الحفظ، شهد له بذلك الخطيب البغدادي وغيره.

ومن مؤلفاته :

في أخبار مكة ـ أزواج النبي ﷺ ـ وفاة النبي ﷺ ـ السقيفة وبيعة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ كتاب السيرة ـ سيرة أبي بكر ورفاقه ـ تاريخ الفقهاء ـ يوم الجمل ـ كتاب صفين ـ ومنه اقتبس ابن أبي الحديد قطعة عن هذه الموقعة في كتابه «نهج البلاغة» ـ مولد الحسن والحسين ـ مقتل الحسين ـ حرب الأوس والخزرج ـ كتاب الردة والدار أي مقتل سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ في فتوح مصر، وغير ذلك، وقد اقتبس منه ابن حبيش ت ٥٨٤ هـ في مغازيه التي لم تطبع، واستخدمه «دوق سرمونت» في كتابه

(١) تهذيب التهذيب ٩/ ٣٦٥ .

(٢) الطبقات ٥/ ٣٩٤

« حوليات الإسلام » في الفصل الخاص بالردة، فقد كان هذا الكتاب مشهوراً في الأندلس ـ وله فتوح الشام بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد، كما طبع بالأسكندرية ويتضمن فتح الشام ومصر والعراق ـ وكتاب فتوح إفريقية، وقد طبع في تونس في مجلدين بتحقيق عبد الرحمن الصناديلي ـ فتح العجم : الهند ـ فتح مصر والإسكندرية . . . إلخ، وكثير من هذه الكتب مشكوك في نسبته للواقدي، بسبب ما تضمنه من محتويات لا تعقل نسبتها إليه .

ولعل أهم كتب الواقدي هي :

(١) التاريخ الكبير أو التاريخ والمغازي والمبعث وهويتناول الخلفاء حتى سنة ١٧٩ هـ .

(٢) الطبقات وهو في طبقات الصحابة وسلالاتهم، وفي طبقات المحدثين في البصرة والكوفة، وبهذا الكتاب أرسى الواقدي دعائم علم الرجال .

(٣) المغازي ، وهو أهم كتاب بقي للواقدي، وقد اختصره ابن حجر العسقلاني، وقد نشر هذا الكتاب كاملاً ومختصرًا عدة مرات، وأخيراً حقق النص ونشره نشرة علمية في ثلاثة مجلدات المستشرق الإنجليزي « مارسدن جونز »، بيروت سنة ١٩٨٤م .

ويتميز الواقدي بأنه ركز اهتماماته على السيرة النبوية المباركة، وعرضها عرضًا منتظمًا دقيقًا، واهتم بتحديد المواقع الجغرافية، وزارها بنفسه، ولم يهتم بالفترات السابقة على الإسلام ولا بالعصر الجاهلي، وخالف بذلك ما فعله ابن إسحاق، وأشهر من روى عن الواقدي كتابه « محمد بن سعد » صاحب « الطبقات الكبير » .

ورغم ميول الواقدي العلوية إلا أنه كان بعيداً عن التعصب، ولذلك لا يعده الشيعة من رجالاتهم، وكثيراً ما أخذ عن ابن إسحاق، ولكنه لم يصرح بسبب ارتياب أهل المدينة فيه، وإن أبدى إعجابه الشديد به، يقول عنه في الترجمة الموجودة عند « الطبري » :

« وكان من أهل العلم بالمغازي ـ مغازي رسول الله ﷺ ـ وأيام العرب،

وأخبارهم، وأنسابهم، وراوية لأشعارهم، كثير الحديث، غزير العلم، طلاّبة له، مقدمًا في العلم بكل ذلك، ثقة» .

كذلك يروي عن «عروة بن الزبير» لمؤهلاته التاريخية الطيبة، ومن الطبيعي ألا يأخذ عن «وهب بن منبه» لكثرة القصص الإسرائيلية عنده.

ويرى المستشرقون في الواقدي المؤرخ الأول؛ بسبب دقته زمنيًا، وجغرافيًا، وبسبب اعتماده على الوثائق .

منهج الواقدي :

رغم اختلاف المحدثين حول قبول حديثه، إلا أن هناك إجماع على إمامته في المغازي، ولقد طبق الواقدي المنهج التاريخي العلمي، وتلك إحدى مميزاته بين كتاب السيرة والمغازي، ولقد كان يرتب الحوادث بطريقة منطقية يلتزم بها، فهو يبدأ مغازيه بذكر قائمة الرواة الذين نقل عنهم الأخبار، وقد وصل عددهم خمسة وعشرين ـ معظهم مدنيون ـ بخلاف ما ذكره تلميذه «ابن سعد» في طبقاته ـ ثم يتناول الغزوات واحدة بعد واحدة محدداً تاريخ الغزوة بدقة وفقًا للتسلسل الزمني، و قد يذكر تفاصيل جغرافية تتعلق بموقع الغزوة، ويحدد الغزوات التي قادها النبي ﷺ بنفسه، وأسماء من استخلفهم على المدينة أثناء غزواته ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ ويذكر أخيراً شعار المسلمين في القتال، وهكذا يلتزم أسلوبًا موحداً في تقديمه لكل غزوة .

وكثيراً ما كان يجمع الأسانيد والرجال لمتن واحد، ويحرص على الدقة وفقًا لمناهج المحدثين في أسلوب واضح وصريح، بعيداً عن المبالغات والأساطير، ويقتبس من الشعر لكن مع قصد، كما يحرص على ذكر الوثائق الأصلية، وإذا كانت قد وردت بشأن الغزوة آيات قرآنية فإنه يذكرها مع تفسير لها، وفي آخر الحديث عن الغزوات المهمة يذكر أسماء من شهدها، وأسماء من استشهد فيها.

إن التفاصيل الجغرافية عند الواقدي، تجعله معبراً عما يسمى «بالأدب الجغرافي العربي» بصورة استحق معها ثناء تلميذه ابن سعد، والبلازري، ومن كتب

بعدهما في الفتوح والبلدان.

ومن مزايا الواقدي أيضًا النظام المتكامل للتواريخ، هذا فضلاً عما انفرد به من ذكر أخبار نجدها في مغازيه، ولا نجدها عند غيره مثل السرية الأولى إلي ذي القصة.

كذلك من مزاياه أنه يسلط الأضواء على مشاهد من الحياة في فجر الإسلام مثل الأصنام، والعادات، والزراعة، والأكل، وكل مظاهر الحياة في الفترة ما بين الهجرة إلى وفاة النبي ﷺ .

يضاف لهذا كله اتباعه لمنهج نقدي واع في اختياره أفكاره، وتنظيمها، والتعبير عن آرائه الشخصية بصورة لا نجدها عند البلازري الذي توفى بعده بسبعين عاماً.

إن مغازي الواقدي أكمل وأتم مصدر محايد لسيرة النبي ﷺ في المدينة.

٥ ـ ابن سعد ١٦٨ ـ ٢٣٠ هـ :

أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري من أسرة تنتمي إلى زهرة من قريش، وكان جده ـ وربما أبوه ـ مولى الحسين، وهو يلتحق ولاء بآل العباس بن عبد المطلب، وهو بصري المولد بغدادي الوفاة.

محدث حافظ، ومؤرخ ثقة، كثير العلم، غزير الحديث والرواية، كثير الكتابة، شهد له العلماء بالفضل والعلم، بل إن السخاوي يفضله على أستاذه الواقدي، ولقد كان القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة برواياتها وأسانيدها مصدرين أساسيين عند ابن سعد، الشيء الذي جعل ابن حجر العسقلاني يشهد بأنه أحد الحفاظ الكبار الثقات المتحرين، وجعل كتابه من الوثائق المهمة في علم السنة والسيرة.

لقد تنقل بين عدة مدن، ولكنه التصق بالواقدي في بغداد، ورغم أنه درس على شيوخ كثيرين إلا أنه ظل على التصاقه بهذا الشيخ حتى آخر حياته، مما أعطاه لقب «كاتب الواقدي».

وهو آخر جامعي السيرة من المتصلين بالمصادر الأولى، وثاني مؤلف بعد ابن إسحاق وصلنا كتابه عن السيرة النبوية كاملاً، وفي طبقاته تناول طبقات الصحابة والتابعين والخلفاء إلى وقته، وقد أجاد فيه وأحسن.

مصادر معلوماته:

يعتمد على الواقدي بالدرجة الأولى وإن كان يعطي أحيانًا تفاصيل أوفى منه ولا سيما في الفترتين المكية والمدنية للدعوة النبوية،كما يعتمد على هشام بن محمد بن السائب الكلبي فيما يتعلق بما يرويه عن أهل الكتاب، كذلك يكثر من الاعتماد على الوثائق، ويصدر مغازيه بقوائم تضم أهم رواته، كما صَدّر كتاب الطبقات بقوائم أخرى، وقد سمع من « سفيان بن عيينة » ومن أمثال الليث بن سعد، ويزيد بن هارون، وغيرهما، وروى عنه أبو بكر بن أبي الدنيا، وأبو محمد الحارث بن أبي أسامة التميمي، والبلازري، وغيرهم. لقد ظلت مدرسة التاريخ الإسلامي تعتمد على كل كتاباته في جميع مراحلها عند أي حديث عن الصحابة أو التابعين، ومن بعدهم إلى عصر ابن سعد نفسه.

منهج ابن سعد :

يتميز ابن سعد بعرض مادته بصورة منظمة: فهو يبدي بعض الملاحظات الشخصية، ويسند كل قول إلى مرجعه مستخدمًا أسلوب المحدثين في رواياته للأخبار والأحداث حسبما تقتضي قواعد منهج علم الجرح والتعديل، مع ذكر الوثائق بنصوصها، والاستشهاد بالشعر كثيرًا، ولم يكن يتدخل بالحكم على الرواية والإسناد، ولكنه يضع كل ذلك في إطار واحد، مع استخدام بعض العناوين الفرعية، ومع مزج الوقائع التاريخية بالنصوص الأدبية شعرًا ونثرًا.

ومفهوم السيرة عند ابن سعد لا يتسع فيشمل كثيرًا مما وراءها، فالجاهلية عنده لا تحتل إلا أضيق نطاق، ولا مكان عنده للرسالات الأخرى، وتتركز عنايته في الصحابة والتابعين وأحوالهم، وهذا جره إلى العناية بالصحابيات والتابعيات، وقد خصص القسم الثاني من طبقاته لهن.

مؤلفات ابن سعد:

ـ كتاب الطبقات الكبير، وقد حفظه بصورته المعروفة لنا الحسين بن فهم (٢١١ ـ ٢٨٩ هـ) كذلك اختصره « السيوطي » في مؤلف عنوانه « إنجاز الوعد المنتقى من

طبقاته ابن سعد »، وهناك كتب أخرى لهذا الحافظ الكبير، والذي يعنينا هو كتابه الطبقات.

أول من أخرج هذا الكتاب المستشرق الألماني « سخاو » في مطلع القرن العشرين، ثم صدرت له طبعة في بيروت بتحقيق إحسان عباس، كذلك طبعته دار التحرير بالقاهرة، ونشرت دار الزهراء بالقاهرة السيرة النبوية في مجلدين، كما نشرت منه أجزاء في المدينة المنورة والطائف في الفترة من ١٩٨٣ - ١٩٩٥م، ثم أصدرته مكتبة الخانجي بالقاهرة مع كثير من التصويبات والإضافات سنة ٢٠٠١م بتحقيق الدكتور علي محمد عمر، وعن هذه النشرة أصدرته مكتبة الأسرة بالقاهرة ضمن ما نشر في مهرجان القراءة للجميع سنة ٢٠٠٣ م في أحد عشر مجلداً شاملة الفهارس؛ اعتماداً على نشرة الخانجي.

موضوع كتاب الطبقات :

يتناول الكتاب موضوعين أساسيين، الأول منهما سيرة النبي ﷺ .. وقد غطت المجلد الأول كله والقسم الأكبر من الثاني، أما تراجم الصحابة والتابعين فقد غطت المجلدات الباقية، إلا المجلد العاشر من نشرة د. علي محمد عمر، فقد خصص للنساء، وخصص المجلد الحادي عشر للفهارس بمختلف أنواعها.

وفي القسم الخاص بالسيرة يقدم توطئة يذكر فيها بعض الأنبياء السابقين علي سيدنا محمد - صلوات ربي وسلامه عليه - كما يتحدث عن مولده ﷺ ونسبه لأبيه وأمه، وبعض الأحداث الكبرى كحادثة الفيل، ثم يتناول بالتفصيل ولادته ﷺ ونشأته، وتجارته، وزواجه من « خديجة » رضي الله عنها، وأولاده، وخلوته، وإرهاصات النبوة قبل الوحي، وعلاماتها بعده، وكيفية بدء الوحي والدعوة، وما لاقاه الرسول ﷺ وأصحابه - رضوان الله عليهم - بدنيًا ونفسيًا، والهجرة إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وتأسيس الدولة الإسلامية الجديدة على مبدأ المؤاخاة وبناء مسجد قباء، ودعوة الرؤساء والملوك في زمنه ﷺ إلى الإسلام، والوفود التي جاءت لرسول الله ﷺ وصفاته الخُلُقية والخَلْقية، وقد استقصى كل شيء حتى سواكه، ومشطه، ونعله - صلوات ربي وسلامه عليه - .

كذلك تحدث ابن سعد عن مرحلة الجهاد في المدينة، وغزواته، وسراياه ﷺ ضد المشركين واليهود، ثم حجة الوداع، وأخيراً مرضه وتمريضه، وموته ودفنه ورثاؤه ﷺ، يتبع ذلك كله بذكر من كان في المدينة ويقتدي به في عهد النبي ﷺ، وبعد ذلك، كما يذكر جمع القرآن الكريم، ثم المفتون في المدينة المنورة بعد أصحاب النبي ﷺ من أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم.

من ذلك نعرف أن «ابن سعد» أول من جمع علامات النبوة، واعتُبر ذلك أساساً سارت عليه الكتب المتأخرة التي عالجت موضوع «دلائل النبوة»، ويعتبر الفصل الذي كتبه عن صفة أخلاق النبي ﷺ سبباً في كتاب الشمائل فيما بعد.

أما تراجم الصحابة والتابعين فقد جعلها طبقات، بادئاً بالطبقات الكبرى مراعياً سبق الصحابي إلى الإسلام، ونصرته، والجهاد من أجله، لذلك كان البدريون هم الطبقة الأولى عنده، والمهاجرون ثم الأنصار، والطبقة الثانية هم المهاجرون والأنصار الذين لم يشهدوا بدراً، ثم الصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة، وهو بذلك راعى العنصر الزمني، فقد بدأ الطبقة الأولى برسول الله ﷺ، ثم الأقرب فالأقرب إليه من حيث نسبه - صلوات ربي وسلامه عليه - أما الطبقة الثانية فهم الذين أسلموا قديماً ولم يشهدوا بدراً، وكان عامتهم قد هاجر إلى الحبشة ثم شهدوا أحداً وما بعدها، والطبقة الثالثة من شهد الخندق وما بعدها، والطبقة الرابعة من أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك، أما الطبقة الخامسة فخاصة بمن قبض رسول الله ﷺ ومن حديثوا السن ولم يغزو أحد منهم معه.

وبعد الصحابة وطبقاتهم تناول طبقات التابعين ومن تلاهم، ولكنه هنا راعى العامل الجغرافي، فترجم أولاً للصحابة والتابعين على أساس المدن التي نزلوها، فبدأ بالمدينة المنورة، وقَسَّم مَنْ ترجم لهم إلى طبقات، ثم من نزل مكة من الصحابة والتابعين، وقسمهم إلى طبقات، ثم الطائف واليمن واليمامة والبحرين والكوفة والبصرة وواسط والمدائن وبغداد وخراسان والجزيرة ومصر وأيلة وأفريقية والأندلس.

وفي كل الأمصار - عدا المدينة المنورة - يستهل حديثه بمن نزل من الأمصار الأخرى فيها، ثم أهل العلم الذين أخذوا عن الصحابة، ثم الطبقة التي تلي هؤلاء، ويستمر على هذا المنهج حتى عصره.

وفي قسم النساء، يبدأ بالسيدة خديجة رضي الله عنها، ثم بنات الرسول ﷺ، ثم عماته وبنات عمومته، وأزواجه، ثم النساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم، ثم غرائب نساء العرب المسلمات للمهاجرات المبايعات، ثم نساء الأنصار، ثم من لم ترو عن رسول الله ﷺ من النساء وروين عن أزواجهن وغيرهن، ولم تكن التراجم على مستوى واحد، وإنما كان ابن سعد يتحدث باستفاضة عند ترجمته لكبار الصحابة وكبار التابعين من المتقدمين، ويوجز كلما ابتعدنا عن الطبقات الأولى وتأخر في الدخول في الإسلام.

ويحرص ابن سعد على ذكر الصفات التي تتسق مع الشخصية المترجم لها، ويبدأ بتحقيق نسبها من حيث الأب والأم، ثم يتحدث عن الأولاد وأمهاتهم ونسب هؤلاء، ويبين هل بقيت ذرية الصحابي المترجم له في المدينة المنورة أم رحلت عنها؟ ويبين وقت دخوله في الإسلام وترتيبه بين الداخلين على يدي المصطفى ﷺ، وهل اشترك الصحابي في الهجرة الأولى أو الثانية إلى الحبشة؟ وأخيراً يصف كيفية وفاة الصحابي، وزمن هذه الوفاة، وما يتعلق بالجثمان والصلاة عليه ودفنه، ويحرص على وصف المظهر الخارجي للصحابي من حيث الثياب والخاتم والعمامة، ولا ينسى الحديث عن وصية الصحابي والإشهاد عليها.

ولا يقل القسم الخاص بالنساء عن غيره من حيث بيان ما قامت المترجم لها من مجهودات أثرت الحياة الثقافية والفكرية، كل ذلك يؤكد أنهن كن مصدراً خصباً لمعرفة أنهن شاهدات على الحديث النبوي الشريف.

ويلاحظ العلماء على طبقات ابن سعد أن :

١ - شخصيته تتوارى أو تكاد إزاء كثرة الروايات، فلا ترى تعليقاً إلا نادراً، وإذا وجدنا فإنه يعبر عن مقدرة نقدية ممتازة.

٢ - ظهرت بعض الإسرائيليات في الطبقات أخذاً مما أشاعه اليهود الذين أسلموا في الصدر الأول من أمثال وهب بن منبه وكعب الأحبار.

٣ ـ التزام ابن سعد بالطريقة الحولية واعتماده عنصري الزمان والمكان كان سببًا في تمزيق الحوادث وتفتيت الموضوعات؛ فلم تجمعها وحدة واحدة.

٤ ـ قطع الروايات قبل أن تكتمل وجمع أسانيد متعددة لمتن واحد، وقد تقتصر الترجمة على سطر واحد أو عدة أسطر إذا كان المترجم له قريبًا من عصر المؤلف .

٥ ـ لا يذكر المصادر التي نقل عنها مخالفًا بذلك ما فعله ابن إسحاق والواقدي، إنه يعتمد على ذكره للسند الذي يصل بالخبر إلى قائله، وبالوقائع إلى مؤلفي الكتب .

٦ ـ يأتي في مصادر رواته من يضعفهم علماء الجرح والتعديل كهشام بن السائب، وأبي معشر.

وهناك غير من ذكرنا من يوثق برواياتهم لأحداث السيرة النبوية المباركة، من أمثال ابن هشام صاحب الفضل الأول في الاحتفاظ لنا بسيرة ابن إسحاق برواية أستاذه البكائي، وقد قامت لجنة السيرة في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة بإعداد صفوة لها في مجلدين، وفعلت الشيء نفسه في سيرة ابن كثير التي صدرت في أربعة مجلدات كبار بتحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد، ونشر نفس المجلس صفوة لها في أربعة أجزاء، ومن الثقات الذين كتبوا في السيرة النبوية الحافظ ابن حجر، والحافظ ابن عساكر، والحافظ الفسوي، والحافظ الذهبي، ومحمد يوسف الصالحي الشامي صاحب «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» ، وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة منها أكثر من ١١ مجلداً كبيراً، ولا غرو فقد جمعها صاحبها من نحو ٣٠٠ كتاب، وجاءت في ٧٠٠ باب، وممن نالت السيرة النبوية المباركة كثيراً من اهتماماتهم الإمام ابن قيم الجوزية صاحب «زاد المعاد من خير هدي العباد» المنشور في أربعة أجزاء بالقاهرة.

كل ذلك بالإضافة إلى الأبواب التي خصصتها كتب الحديث النبوي المختلفة لسيرة سيدنا رسول الله ﷺ في القديم أو الحديث، وكل عام تقدم لنا المطابع ثمرات جهود المحبين والدارسين منها، أو ترشد إليه، أو ما يستفاد من هديه صلوات

ربي وسلامه عليه.

ويتضح مما سبق أن السيرة النبوية جزء لا يتجز من السُنَّة، إنها التطبيق العملي النموذجي للإسلام، وأنها أمثل أسلوب لتعليم سياسة الدين والدنيا على النحو الذي نقل إلينا عن رسول البشرية ﷺ .

ثم حدث أن اتسعت الدولة الإسلامية، وانتشرت الفتوحات زمن الخلفاء الراشدين، ووقعت الفتن العظمى ونبض عرق العصبية القبلية، وشاعت الفتن بين المسلمين، كذلك انتشرت أخبار الأمم القديمة والديانات غير الإسلامية على أيدي أمثال كعب الأحبار ت ٣٤ هـ تقريباً، وعبيد بن شريه ت ٧٠ هـ تقريباً، ووهب بن منبه ت نحو ١٠٠ هـ، ومعنى ذلك أنه دعت دواع وطرأت أسباب تدعو إلى جمع الأخبار المتعلقة بكل ذلك وتدوينها، ومن ذلك: الرغبة في فهم الإشارات التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية خاصة بالأمم السابقة، ومنها ميل الملوك أمثال معاوية رضي الله عنه، وأبي جعفر المنصور إلى الاطلاع على سياسات الملوك السابقين ومكايدهم، وحرص الموالي على التنويه بمجدهم القديم في حركة الشعوبية التي اشتد أوارها في العصر العباسي، كما احتاج الشعراء إلى تدوين الأنساب وأيام العرب؛ لاستخدامها في مقام الفخر والهجاء، بل إن الدولة احتاجت للأنساب؛ للاستعانة بها في تقدير العطاء للجند، فقد كان ذلك العطاء بناء على القرابة من رسول الله ﷺ ، والسبق إلى الإسلام، أما الباعث الأقوى على تدوين الفتوح فهو رغبة أولي الأمر في معرفة ما فتح من البلاد صلحاً، وما فتح عنوة، وما فتح بعهد؛ لأن لكل حالة من ذلك حكمها من حيث الجزية والخراج.

كل ذلك يجعلنا نقول إنه نشأ نوع من العلاقة بين الأخبار وبين السيرة النبوية المباركة، أو أن الرواية التاريخية أصبح لها وجود بجوار السيرة النبوية الشريفة: الرواية التاريخية التي تعالج أخبار الماضين وأحوال الجاهلية وحوادث الإسلام، وأطلق على ذلك لفظ «الأخبار» وعرف المتخصص فيه باسم «الإخباري»، كما عرف المتخصص في رواية الحديث باسم «المحدث» ولوحظت النقلة من الحديث إلى الأخبار في رجال خواص منهم ابن إسحاق، والواقدي، والمدائني ت ٢٢٥ هـ

فقد كان كل منهم إخباريًا ومحدثًا معًا. ولوحظت بداية التخصص في الإخبار عند أمثال محمد بن السائب الكلبي ت ١٤٦ هـ وكان مقدمًا في علم الأنساب، وعوانة بن الحكم ت ١٤٧ هـ، وقد جمع أخبار بني أمية وأبي مخنف ت ١٥٧هـ، وله كتب في الردة، ووقعة الجمل، ووقعة صفين، وأخبار الخوارج، وسيف بن عمر ت ١٧٠ هـ وله كتاب كبير في الفتوح، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي ت ٢٠٤ هـ وله في أخبار الأوائل، وأيام العرب وأنسابهم، وأخبار الإسلام كتب كثيرة أحصاها ابن النديم في الفهرست، ومطبوع منها «كتاب الأصنام».

وقد وجد في هذه المرحلة تخصص محلي في رواية الأخبار، فلكل قطر من الأقطار الإسلامية الهامة إخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها، بنقل ابن النديم[١] عن العلماء قولهم: «أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحاتها يزيد على غيره، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بأمر الحجاز والسيرة، وقد اشتركوا في فتوح الشام».

وكان المحدث عن جمهور ذلك الزمن أشرف من الإخباري نظرًا لشرف موضوع الحديث، ثم إن الأخبار ـ وخصوصًا القديمة ـ مظنة التلفيق والاختلاق والاغتراب. ونستطيع أن نقرر أنه في أواخر القرن الثاني الهجري رسمت الأبواب الأساسية للتاريخ عند العرب وانحصرت في أمور أربعة هي:

(١) أخبار الماضين.
(٢) أحوال العرب قبل الإسلام.
(٣) السيرة النبوية المباركة.
(٤) أخبار الدولة الإسلامية.

وفي الفترة من أوائل القرن الثالث إلى أوائل القرن الرابع الهجري لوحظت زيادة جوهرية في المادة التاريخية مع دقة وتحرر في مصادرها، فقد استقرت الدواوين في الدولة العباسية ولا سيما ديوان الإنشاء وديوان الجند وديوان الخراج وديوان البريد، وانتفع المشتغلون بصناعة التاريخ بكل ذلك في صنعتهم، يدل على ذلك ما

(١) الفهرست صـ ٧٣١.

اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث من عهود رسمية، ومراسلات سياسية، وإحصاءات للمواليد والوفيات، وتحديد مدد كبار رجال الدولة من وزراء وقواد وعمال وقضاه وأمراء على مواسم الحج ووصف للحروب الداخلية، ووقائع الصوائف والشواتى على الحدود.. إلخ، ثم إنه في نفس العصر قويت حركة الترجمة عن الفارسية والسيريانية واليونانية واللاتينية، كما كانت سهولة التنقل بين أرجاء الدولة الإسلامية المختلفة عاملًا مهما ساعد على الرحلة العلمية في طلب العلم، وساعدت المؤرخين خاصة على السفر طلبًا للرواية، وأخذها عن الشيوخ، هذا فوق رؤية عجائب البلاد، ومشاهدة آثارها، فتوفر بذلك مصدر هام هو المشافهة والمشاهدة، وقد حدد مؤرخو القرن الثالث الهجري مصادر التاريخ في أربعة أشياء هي :

(١) كتب السيرة والأخبار .
(٢) السجلات الرسمية .
(٣) الكتب المترجمة .
(٤) المشاهدة والمشافهة .

وهكذا أخذ التاريخ مظهره الرائع باعتباره من أجل علوم المسلمين، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الإسلامية كرجال لهم خطرهم في الحياة العامة سياسية أو غير سياسية، ولم ير كثير من أفاضل العلماء وثقات الفقهاء بأسًا في التوفر على دراسة التاريخ والتأليف فيه، وتضاءل مفهوم الإخباري فأصبح يطلق على من يروي الحكايات والقصص والنوادر (ضحى الإسلام لأحمد أمين / ٣٥ ٢ / ٦ والنص الأصلي في أنساب السمعاني) .

لكن الوحدة السياسية التي انتظمت بها الدولة العباسية بدأت تتداعى اعتبارًا من منتصف القرن الثالث الهجري، وتحولت الدولة إلى دويلات يحكمها متغلبون أجناسهم مختلفة إن شرقًا وإن غربًا، وجرت اللامركزية السياسية إلى لا مركزية أدبية، وتوزعت الثقافات على الأمصار بعد أن كانت الثقافة محصورة في مركز الخلافة وحده، وكثر العلماء في الأمصار كثرة عظيمة كل ذلك أثر فيما ظهر من

تواريخ محلية، وكتب للتراجم والطبقات خاصة - ابتداءً من منتصف القرن الثالث الهجري - مع استمرار سلسلة التواريخ العامة مضطردة من حيث انتهى الطبري، فوضع كل من المسعودي، وأبي الفداء، وابن مسكويه، وابن الأثير، وابن خلدون وغيرهم مؤلفاتهم التاريخية .

كذلك ترتب على التفرق السياسي وهن في القوة السياسية، وطمع الأعداء في المسلمين؛ فاستأسد الروم وهاجموا شمالي بلاد الشام في القرن الرابع الهجري، وأغار الصليبيون على أملاك المسلمين شرقًا وغربًا في القرنين الخامس والسادس الهجريين، ثم كانت طامة المغول التي دمرت معالم الحضارة الإسلامية في آسيا، وأخذت مدن الأندلس تتهاوى واحدة وراء الأخرى، بذلك كله دخل العالم الإسلامي في طور جديد يختلف عن الأطوار السابقة عليه اختلافًا بعيداً .

وكان من الطبيعي أن ينحو المؤرخ الإسلامي الذي رأى ذلك كله منحًا فلسفيًا عميقًا، ويحاول التعرف على الحوادث، وأسباب قيام الدول، وعوامل سقوطها، ومظاهر العمران، وأصول الاجتماع إلى غير ذلك، وهذا الاتجاه وصل إلى ذروته على يد «ابن خلدون» في مقدمته التاريخية التي لم يكتب مثلها في الإسلام على الإطلاق واستحق بها أن يكون فيلسوف مؤرخي العرب قاطبة .

أخيراً أصبح علم التاريخ نفسه محلاً للبحث والدراسة على أيدي مؤرخين أمثال الصفدي ت ٦٧٤ هـ في مقدمة كتابه «الوافي بالوفيات»، والسخاوي ت ٩٠٢ هـ في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»، وغيرهما .

تلك لمحة سريعة عن تطور الكتابة التاريخية، وما مرت به من أطوار بعد انفصالها عن السيرة النبوية وعلم الحديث حتى وصلت إلى ما وصلت إليه .

وهكذا اتضحت أمامنا معالم السيرة النبوية المباركة، وصلتها بالتاريخ العام، وبالمراحل التي مر بها تدوين كل من السيرة النبوية المباركة، والتاريخ بمعناه العام .

* * *